الطائر الطليق

دراسة تاريخية في فصل واحد ذي ثلاثة مناظر

أشخاص الرواية

ابن سينا الفيلسوف	محمد بن عطاء — الشاعر
أبو عبد الله المعصومي — تلميذ ابن سينا	بثينة — إحدى معشوقاته

شرطيان

المنظر الأول

(في الطريق العام ـ يسمع وقع أقدام شرطيين في منتصف النهار)

الشرطي الأول — هذه مشكلة يا زميلي . . . . لقد انتصف النهار أو كاد ، وها نحن قد أتينا بخمسين ، فماذا نقول للأمير ؟

الشرطي الثاني — إن الدار خاوية ، وخلوها يدل على مؤامرة مبيتة لاختفائه واختفاء خادمه معاً .

الشرطي الأول — صدقت فإني لم أهتد الى سكن خادمه أيضاً .

الشرطي الثاني — والأعجب من هذا أنه لا يوجد دليل على هروبهما من المدينة ، كما لا يوجد أي دليل على بقائهما ، فكأنهما لم يخلقا !

الشرطي الأول — أمّا أعجب الأعجب في رأيي فهو أن يشغل مولانا الأمير إن هذا الحد بهؤلاء المجانين الذين يسمونهم « الفلاسفة » !

الشرطي الثاني — أنظر يا صاحبي ! لعلنا أمام معجزة ؟ أليس هذا ابن سينا وخادمه متجهين إلينا ؟

الشرطي الأول — أشرطي وتحور ؟ ألا ترى يا صاح أن هذين رجل وامرأة — والرجل أبعد ما يكون صورة عن ابن سينا ؟ ثم ألا تراهما كأنهما يتشاجران ؟ فهل هذا

شأن من يريد التخفي والهروب ؟ أم تظن هذا طرازاً جديداً من التصنع للتمية ؟!

(تسير أمام محمد بن عطاء وبثينة قادمين وهي تخاطبه محتدة)

بثينة — من هذه « الورقاء » يا خائن ؟ هلمّ معي إلى الرئيس ليؤدبك ، وإلاّ أدبتك أنا !

الشرطي الأول — ماذا جرى يا امرأة ؟ ومن هو الرئيس الذي تتحدثين عنه ؟

بثينة — إني أشكو محمد بن عطاء خطيبي الخائن ، وسأقوده رغم أنفه إلى دار أستاذه ابن سينا .

الشرطيان (مندهشين) — ابن سينا ! ! وأين هو ؟

بثينة — في داره طبعاً . فهل طارت الدار ؟

الشرطي الأول — بل طار هو !

بثينة — لماذا تسألان ؟

الشرطي الأول — مولانا الأمير يطلبه وقد عجزنا عن الاهتداء إليه . . . يخيل إليّ أن عليك البحث عن ابن سينا آخر ليكون قاضي الغرام (يضحك ويمضي)

الشرطي الثاني — أشك في توفيقها إلى ذلك لأنه لم يبق حتى الرئيس في هذا النوع من الفلسفة . . . هو قاضي الغرام ، وأستاذ الغرام ، وآكل الغرام ومشتاريه ! (يضحك ويمضي)

الشرطي الأول — ولكن لماذا لا نحكم نحن ، وقد أصبحنا أو أوشكنا أن نصبح من الخبيرين ! (يضحك ويمضي) .

م ؟ تشكين يا إمرأة ؟

بثينة — سمعته يا سيدي يغني في الطريق :

هبطتُ إليك من المحل الأرفع ورقاء ذاتُ تدلل وتمنع !

فلما تطلعت وجدته يغازل فتاة كانت تطل من نافذة . ولما كشفت حيلته ، حاول التخلص منه ، مدعياً أنه إنما كان يمجد الله سبحانه وتعالى . . . .

الشرطيان (مقاطعين) ها ! ها ! ها !

بثينة — وأن « الورقاء » ما هي إلا النفس ، وأن هذا هو الرمز الذي استعمله أستاذه ابن سينا ، ويظهر أنه خليع منه يلعب بالألفاظ كما يلعب بالعذارى . . . .

الشرطيان (مقاطعين) — ها . ها . ها

الشرطي الأول — عليك يا امرأة أن تمسكي بتلابيبه ، وإلاّ طار منك إلى عزبته « الورقاء » كما طار ابن سينا رضي الله عنه . . . . (يقهقه الشرطيان)

ابن عطاء — هل للمخرس أن ينطق بلغتكم الآن ؟ (يقهقه الشرطيان)

الشرطي الأول — وورقاء ذات تدلل . . . . هبطت إليك ! (يقهقه الشرطيان)

المنظر الثاني

(بعد الفروغ من إقامة التدريس بدار أبي عبد الله المعصومي وقد اجتمع سفرة من طلبته تلبية لدعوته ، وقبيل وقت الدرس دخل ابن عطاء وبثينة) .

ابن عطاء (مخاطباً أستاذه المعصومي) — لقد اضطررت على الحضور يا سيدي ، واني لضمين لها ، فكن مطمئناً ولا تغضب عليّ . . . . اجل ، اني لضمين لها . . . . .

المعصومي — هل قدرت غاية هذا الاجتماع ؟

ابن عطاء — اجل يا سيدي ، وهي اهل لكل ثقة بها ، ما دمت اهلاً لثقتكم بي وبعد ، فأنت من قال الرئيس عنه : « هو بمنزلة أرسطو من أفلاطن » فدعنا نغترف من علمك ونصحك وإرشادك .

المعصومي — حسناً ! اجلسا في ناحية مع اخوانكما .

(يسمع صوت جلوسهما)

ابن عطاء — شكراً لكرمك يا سيدي .

(ثم مخاطباً بثينة في همس) — ستسمعين بعد لحظة حديث أستاذنا العلامة ، وستدرين أنك كنت على ضلال في مزاحمتك عني وعن الرئيس .

بثينة (عابسة) — سنرى . ومع ذلك فضاؤك للورقاء لم يبارح أذني !

ابن عطاء (هامساً) — كرهت إليّ والله الغناء والورقاء ، وأخشى أن تكرهي إلي الفلسفة إن لم ترجعي عن هذا الغي . والآن صهاً ، فها هو الأستاذ موشك أن يتحدث .

المنصوري (لحاشية الحاضرين) — السلام عليكم ورحمة الله — أما بعد ، فقد دعوتكم لسماع خطابي عن الرئيس في مناسبة خطيرة ستعرفونها وأنتم صفوة تلاميذه وأصحابه والمؤتمنون على أسراره . ومن هو الشيخ الرئيس ابن سينا ؟ أأنتم بحاجة الى تعريف ؟ كلا ثم كلا ، ولكني أذكّر فالذكرى تنفع المؤمنين .

إن الشيخ الرئيس هو أوحدي عصرنا بل جميع العصور ، فلا عجب إذا بذل الأمراء ما بذلوه لاجتذابه إليهم ، ولا عجب أيضاً اذا هو فر منهم وقرر الفرار من كركانج .

أصوات (في دهشة) — الفرار ؟ !

المنصوري — نعم الفرار . فان اضطهاد رجال الفكر والفلسفة هو الشائع في هذا الأوان وما هم جميعاً الا تلاميذ الرئيس ، فالاساءة اليهم اساءة إليه :

ولا يقيمُ على ضيمٍ يرادُ به إلاّ الأذلان : غير الحيّ والوتد !

والحفاوة الظاهرة لا قيمة لها إذا كان يستتر خلفها الاضطهاد الفكري . ولو عرفنا قيم الرجال لحبأنا الرئيس في عيوننا .

أين سواه ذلك العبقري الذي أتمّ دراسة اللغة والأدب وهو في سن العاشرة ؟ . وأين غيره الذي ألمّ بكل معارف عصرنا هذا الالمام العجيب ، وتبحّر هذا التبحر الفذ في الأدبين العربي والفارسي فأتحف العربية بهذا الشعر العامر كما أتحف الفارسية برباعياته الشائقة ؟ أين سواه من علم نفسه بنفسه الطب كما صنع الرئيس ثم أظهر هذه الأهلية الفذة في العلاج وفي التأليف حتى صار « قانون » المرجع الطبي الأعلى في جميع الأقطار ؟ أين ذلك الفيلسوف الذي أخرج من التصانيف أمثال « الشفاء » و « الاشارات » و « النجاة » التي حلت محل كتب أرسطو ؟ أين ذلك المتصوف الذي أبدع مثل ما أبدع الرئيس من الآراء في النفس والالهيات والعقل وفي تعليقاته على كتاب النفس لأرسطو ؟ إن الشيخ الرئيس هو أول من خالف القدماء الذين كانوا يعتمدون على المنطق وحده في البرهنة على لامادية النفس ومباينتها للجسم ، وهو أول من لجأ الى التجربة النفسية فقال فيما قال : « لتتصور انساناً خلق محجوب البصر لا يرى من اهابه شيئاً ، متباعد الأطراف لا يلمس جزء من جسمه جزءاً آخر ، يهوي في خلاء لا يصدمه فيه قوام الهواء حتى لا يحس ولا يسمع ، أليس يتغفل مثل هذا الانسان عن جملة بدنه ؟ أليس يشعر بشيء واحد فقط هو ثبوت نفسه ؟ « فالنفس اذن موجودة وجوداً غير بدني » .

أين من فكّر فيه ذلك التفكير العالي في تحديد مسألة « الوجود » بماهيات الأشياء ، فرأى أن هناك من الأشياء ما لا يؤخذ في حده معنى الوجود ، كالمثلث مثلاً ، فإنا نتمثله خطًّا وسطحاً ولا نتمثله موجوداً ؟ مثل هذا الشيء وجوده زائد على ماهيته ، عارض عليها ، وهو يحتاج في وجوده الى علة . أين سواه من غالف أرسطو في رأيه أن العالم قديم قدم الله وهو ما لا يتفق ونزعة المسلم الى التوحيد — فجعل شيخنا الرئيس لله سبحانه وتعالى متقدماً على أفعاله القديمة « بالذات » لا بالزمان ، والزمان نفسه — مع أنه قديم — مخلوق أيضاً ، تقدمه الواجب بالذات لا بزمان آخر . وقد فاض العالم عن الله بمحض ارادته ، لا عن حاجة الى ذلك ؟ وإله أرسطو لا يعقل . الا ذاته ، وهو مشغول بها عما عداها . وأما شيخنا فيؤمن ويبشر بأن الله جلت عظمته لا يعقل ذاته فقط ، بل يعقل الماهية الكلية كما يدرك الجزئيات ، ولكن من حيث هي كلية فلا يذهب عنه مثقال ذرة . ويرجع ادراكه للجزئيات الى علمه بعللها ومبادئها ، كما يرجع ادراك الفلكي كل كسوف جزئي الى علمه بالحركات السماوية علماً كليًّا . ثم تأملوا فلسفة التفاؤل الجميلة لشيخنا الرئيس ؟ انه يرى ان عناية الله تحيط بكل شيء . وهو يعرّف العناية بقوله « انها إحاطة علم الأول بالكل ، وبالواجب أن يكون عليه الكل حتى يكون على أحسن نظام . فعلم الاول بكيفية الصواب في ترتيب وجود الكل منبع لفيضان الخير في الكل » . وهو يرى أن عالمنا يغلب خيره ، على شره ، والشر الطفيف المحدود محصور في الاشخاص دون الانواع ، ولا يصيبهم دائماً بل أحياناً ، فعالمنا أفضل العوالم الممكنة .

أيها الاخوان — لا أريد أن أكون أنانياً مستأثراً بوقتكم ، فمن رغب منكم في أن يتحدث في هذه المناسبة الخطيرة عن مآثر شيخنا العالية فإني أرحب برغبته . وبعد صلاة العشاء سأختار أحدكم ليصحب شيخنا الرئيس في سفره ، حتى يدرأ الأذى عنه .

ابن عطاء — ليس لي من تعقيب يا سيدي سوى الشكر الذي يسهم فيه زملائي جميعاً ، فمفاوتك بعد أستاذنا الفكري وسهرك على سلامته من مكر السلطان وبطشه لها القدوة لنا ، ولكن ثق بأننا في الوفاء أنداد . وعلى ذلك فلا تفكر في الاختيار ، فكلنا سواء في حب خدمته وافتدائه ، وأينا قادر على ذلك .

صدقت يا سيدي ولم نبالغ مطلقاً في تنويهك بقدره العظيم . وحسبي أن أقول إن الأجيال اللاحقة ستسخر من زمننا الذي يرغم فيه شيخنا الرئيس على الفرار من وجه الطغاة . وأمن أجل المصنف الموسوعي مثله ، والجهد الفعل الذي احتفظ لشخصيته

واستقلاله كما احتفظ شيخنا الرئيس على الرغم من أعاصير السياسة وتقلباتها ؟ وأين من يزه بل حاكاه جاداً في البحث والدراسة العلمية والفلسفية حتى لم يفته علم تشريح الانسان ؟ وأين من أرضى العلم والاسلام قبله بمثل تعليله نشوء الأكوان المختلفة التي لم يعتبرها صادرة عن الله مباشرة ، إذ أن الوحدة المطلقة لا تصدر عنها إلا وحدة ، وانما اعتبر مصدرها معركة الدوائر الناجمة عن الدائرة الأولى التي تحيط بالكائن الفرد ؟ أين أين من له هذا العقل الجبار النير الذي يبهر العقول بتسلسل تفكيره الملهم ، فاذا بنا نادى بأزلية الوجود نسبها الى أن هذه الأزلية تختلف عن أزلية الله بأن لها سبباً خاصاً وقائماً بها ، وهذا السبب لا يقع في الزمان ، أما الله فأزلي الوجود بذاته ؟ وأين أين من يملك ذهنه وضع أمثال هذه التصانيف التي لا حصر لها في الطب والمنطق والطبيعيات وما وراء الطبيعة وفي حكمه الاشراقية ونظراته وتفاسيره الشرعية وفي علوم ومعارف لا تستقصى ؟ . إنا نشكرك من أعماق قلوبنا يا سيدي ، وننتظر إشارتك !

المعصومي — إن الرئيس متوار في كوخ مهجور متهدم بجوار ناعورة الورّاق يطوف البلدة . أما « الرفيق » فإني متنازل عن حق اختياره ثقة مني بكم جميعاً ، فلتختاروه أنتم من بينكم . وأما كلمة السر فهي كلمة الحق أيضاً ، هي « الله أكبر » .

أصوات — الله أكبر !

المنظر الثالث

(بعد المشاء في كوخ مهجور متهدم بجوار ناعورة الوراق بطرف كركانج ، وقد توارى فيه الشيخ الرئيس ابن سينا ، ومعه بعض متاعه) .

بثينة — (في صوت منخفض وقد اقتربت من باب الكوخ) — الله أكبر !

ابن سينا — (في صوت منخفض كذلك) — الله أكبر . انتظر قليلاً أيها الصديق . هل الطريق مأمونة ؟

بثينة — (خافضة صوتها) — نعم يا سيدي ، وان وجب علينا الحذر ، كما يجب علينا الاسراع فالشرطة جادون في البحث عنك .

(يخرج ابن سينا من الكوخ ومعه خرج فيه متاعه)

ابن سينا — (دهشاً) — امرأة .

بثينة — أجل يا سيدي لقد اختارني حواريوك لصحبتك بعد أن أفحمتهم بحكمة هذا المساء .

ابن سينا — ولكن هذه مجازفة كبيرة وتعرض منك للخطر .

بثينة — لا تصغرني يا سيدي بعد أن آمنت بك ، وأنت بعقلك الكبير من يأبى تميز الرجل على المرأة اذا ساوته عقلاً وكفاية .

ابن سينا — أحمد الله على أن تعاليمي خلقت مثل هذه الثورة ، ولو أني الليلة هارب طريد .

بثينة — سأرافقك يا سيدي كأختك ، وبذلك أدرأ عنك الشبهات . فهلم بنا نبدأ رحلتنا .

(يبدآن بالسير فيسمعان لغطاً مقبلاً عليهما)

بثينة — (خافضة صوتها) هلم نختبىء في هذا الحقل حتى يبتعد هذان القادمان

(يختبآن بينما يقبل شرطيان ويشرفان على سيرهما متعجبين)

الشرطي الأول — لعلك اقتنعت بعد كل هذا البحث والسؤال والتنقيب بأن ابن سينا لا يزال في كركانج ، ولا ادري لماذا كل هذا الاهتمام به وهو علم الناس أزوال « الورقاء » من الحمل الأرقم ؟ (يبتعد الصوت تدريجياً)

ها . ها . ها . ها . ها . ها .

الشرطي الثاني — لعلنا حينما نرجع نجد « الورقاء » الأخرى لا تزال ماسكة بتلابيب صاحبها حتى يثوب عن « ورقاء الحمل الأرقم » !

الشرطيان — (يضحكان معاً ويبتعدان في الاتجاه) : —

ها . ها . ها . ها . ها . ها .

[انتهت الرواية]